

عبقريّة الفكر العربيّ وسُمُوّه يحدّواهُ إلى غُطّ نَهْجِ عبديّ في تدوين تاريخ الأدب العربيّ

لدّكتور بهجة الأثريّ

عضو المجمع العلمي العربيّ - بغداد

واتسعت معارفهم ، أن يستجدوا الطريف المتع
الخصب من مذاهب التقد وطرائق الموازنة ، فيلونوا
بها التاليف بالأوان جديدة . تكسبه القوة ، وتخلع
عليه غلائل الجدة ومطارف الحسن والرواء .

وهكذا كان تدوينهم نتاج الافكار والمعقول
والضمان ، تدويتنا طبيعيا حرا ، طليقا من القيود
الثقال ، تسجيلا ووصفا واحصاء ونقدا وموازنة، لم
يخرجوا به في معظم أحواله عن الفطرة والطبع ، ولم
يفلسفوه ، ولم يربطوا تاريخه بالاحداث ، وإنما تركوا
لمن شاء أن يفهم مما يقع له من آثاره ما يشاء ، وأن
يستنبط منها ما يستطيعه بالقدر الذي يسمو إليه
ادراكه ، أو تحاوله ارادته ، فيقف عندما استنبط
راضيا به أو ساخطا عليه ، أو يتجاوزه فيستزيد منه
ويسعى وراءه في الافاق القاصية من محيطاته وعبه
العميقة أبلغ العمق ، والواسعة سعة ينقلب عنها
البصر خاسئا وهو حسير . ذلك بأن امتداد تاريخهم
واختلاف تقلباته ، واتساظ رقعة الاوطان التي
انتشروا على أديمها ما بين المشرق والمغرب ، وقد
تنوعت طبيعتها وأمزجتها ، وتباينت فيها وجوه
المؤثرات ، ثم كثرة ما انتجوا في الحقب الطوال من
ولائد الافكار ، وتعدد صورته ، وتنوع الوانته : كل هذا
وغير هذا ، لم ياذن بتدوين ادبهم على غير هذا المنحى
الذي ذكرت . وهو اذا اذن به استدعى طاقات قوية
قوة خارقة : تعين على تقصي آثاره ، واستحضار

لما بدا (العرب) التدوين في القرن الاول للهجرة،
جروا فيما دونوا من شيء مع الفطرة بعيد من
التكلف والتعمل والتعقيد ، وعنوا في كتابة ادبهم
بأثبات الرواية - وهي مصدره الاول الاصيل - في
أمانة بالغة .. تزموا فيها تزمنا شديدا ، التزاما
للصدق ، وتقديرا لما في اعناقهم من هذه الامانة وما
يجب عليهم من أدائها سالمة الى الاجيال .

ذلك شأن تفردوا به بين الامم قاطبة ، ولم يرو
لنا التاريخ ضربيا لهم فيه .

وتحت سلطان هذه النزعة الامينة الصادقة
المتشبة ، على نفوسهم واقلامهم ، حرروا نصوص
الروايات والاثار ، معارضة وضبطا وتفسيرا ؛ ثم
حفلوا بأخبار من صدرت عنهم هذه النصوص والاثار،
من شعراء وادباء ، فدونها في ايجاز تارة واطناب
تارة ، ونقصوا السير ، واحصوا ما أنتج في كل فن
من فنون الادب وكل لون من ألوان الثقافات ..
سالكين في ذلك مسالك مختلفة وان تقاربت في
الغايات ، على ما هو مشاهد محس فيما خلفوا من
تراث زاخر عظيم على توالي العصور ، وما برح الخلف
يتابع السلف على نهجه ، والجيل يقفو اثر الجيل ،
ويتوفر على تدوين الآثار القيمة مما يجد من ادب
وعلم ، في أزمانه واقليمه ، ما دنا منها وما بعد ، على
قدر ما يتسع له الذرع ، ويتوافر من مادة التاليف ؛
وما فاتهم حين استبحروا في الحضارة والعمران ،

مضامين هذه الآثار ، وما اختلف منها وما تشابهه ، وتنسق ذلك كله تنسيقا علميا ، وتدرسه دراسة جماعية ، متاملة مستأنية ، نقاشا وتحقيقا يخلصان بها الى نتائج تصدق على هذا الادب في جملته وتفصيله ؛ ولم يتوافر شيء من هذا ، ولا احسبه سيتوافر بعد زمن طويل ايضا ، فليس حدوث مثله بالطلب السهل اليسور . وهذا باب واسع يتغلد منه الى آفاق بعيدة ، وليس يعني من هنا غير اللوحة الدالة بما يقال فيه .

ولما كان هذا العصر الحديث ، وحدث الاتصال فيه بأوربة ، وجدت آداب الفرنجة مدونة ومؤرخة بأسلوب مغاير لهذا الاسلوب العربي . وهو في جملته منطبق بنطاق التاريخ السياسي عندهم ، وموصول به ، ومقسوم الى عصور متميزة ، جعلت لكل عصر منها معالم من الاحداث الكبرى تفصل بينها ، ووصل فيها أفق الفكر واتجاه بافق السياسة والاجتماع والاقتصاد ، قصدا الى تبين المؤثرات في الآثار ، وتعرف الظلال والالوان التي تتخالف فيها من عصر الى عصر تبعا لذلك .

ولقد ذهب بريق هذا المذهب في تدوين تاريخ الادب بأبصار كتاب العرب المحدثين منذ اول الاتصال بأوربا ، وبفرنسا خاصة ، كما يكون الشأن عادة عند الالتقاء بشيء جديد ، فبادروا الى اصطناعه قبل ان يفحصوه ، ويتعمقوا في درسه ، ويلاحظوا الفرق بين طبيعة ادب أمة وأخرى ، ويتدبروا القياس كما ينبغي ان يكون التدبر لقانون ما يراد تطبيقه ، وجرأ وراءه سراعا مهطمين ، يتغنون أقلامهم على آثار ما رسمه الاوربيون ، فيما حاكوهم به من كتابة موجزات في تاريخ الادب العربي ، غالبا تعليمي ، أو مفصلات غلبت عليها طبيعة الفهرسة وقلت حظوظها من التقصي والفوص الى الاعماق ، ولم يكتبوا فيه في حقيقة الامر - الا بقدر ما يحسو العصفور بمنقاره من ثقب من البحر المحيط . وقسموا الادب العربي فيما كتبوا من ذلك وفاقا لهذه الطريقة الاوربية الى عصور تاريخية ؛ اخضعوا جملة انتاج العقل العربي فيها لعوامل السياسة خاصة ، ظانين - وظننت ظنهم في مطلع الشباب - ان هذا المذهب يصلح ان يكون في جملته وتفصيله مذهبا عاما ، ويحسن تطبيقه على الادب العربي وتدوين تاريخه كما يدون التاريخ العام ، تدوينا يجسد اطواره من عصر الى عصر ، ويعطي من الاحكام الجامعة والنتائج المرضية معطيات قيمة تطابق الحقيقة والواقع من امره !

ولا ريب عندي في أن هذا المذهب في حد نفسه - بقطع النظر عن امكان الانتفاع بتطبيقه في كتابة تاريخنا الادبي ، بأبعاده وأغواره وأزمانه - هو مذهب موفور الحظ من مسحة التفكير والتنظيم ، وعليه طابع الاصاله المنهجية التي تحدثت في البحث اشياء من جمال التبويب والتنسيق ، وتجمع النظائر والاشباه ، وتوضح الاقدار المشتركة بينها توضيحا ما ، لا شك في غنائه وجيواه عند ارادة إدراك علاقة الآثار بالمؤثرات ، فيما يمكن حصره والسيطرة على أبعاده من شيء ، وحين تتسنى الاحاطة التامة بوسائله ، وتيسر القدرة التي تستطيع الفوص والاستنباط والخلق .

ثم هو مذهب توائم طبيعته طبيعة الادب الاوربية عامة ، بوحداثها المتعددة والصغيرة ، وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالا سياسيا وتاريخيا ، وانفصالا لغويا وأديبا من حيث استقلال كل منها بلغتها الخاصة ، وأدبها الخاص ضمن حدودها الضيقة ، ونحو ذلك من اشياء سهل معها تشخيص السمات وتبين المعيزات .

ولكن هل كان الادب العربي في مناشئه وطبيعته كذلك ؟ ومتى ؟ واني ؟ فنخضع تدوين تاريخه العام لهذا المذهب على هذا النحو بحيث تبلغ به النتائج الصحيحة التي تصدق عليه ؟ جواب هذا التساؤل عندي ، ولست اتعجل به من غير تدبر : « لا » مشحونة بكل دلالة نفية القاطع ، متمثلا في حرفيها المستعملين الشامخين !

فلا ريب أن الادب العربي يتميز بخاصيتين عظيمتين ، باين بهما آداب هذه الوحدات الاوربية وغيرها ايضا ، فامتنع بهذه البايئة - فيما أرى - اخضاعه اخضاعا تاما لما اخضعت له من قانون دونت به تواريخها الادبية العامة .

اما احدهما ، فتلك هي ما انبسط لهذا الادب من اوطان ترامت ما بين بلاد الفال في الغرب وتخوم الصين في الشرق ، وبين حواشي البسفور شمالا واليمن وحضرموت جنوبا ، وما حظي به من مشاركة عبقریات من مختلف الشعوب في بنائه ، وما استوى بذلك لافاقه من ابعاد وأغوار ، وما زخر فيه من آثار متنوعة اذا استطاع الاحصاء لشيء ما ان يحيط بأفراده حصرا ، فلن يبلغ من آثاره مدى يحصرها في حدوده ، ويعطيها صورة عامة صادقة .

واما الاخرى ، فتلك هي طبيعته الخاصة ، ومناشئته ، وبنائمه التي تشق مجاريها الدافقة طرقها فيه الى « لا نهايتها » ، وترفده دائما بما يمنحه استقلال الشخصية وحماية وجودها بالصمود امام الاعاصير ، بل القدرة على التأثير في مجاري أحداث الحياة نفسها ، فيفرض عليها سلطانه كما سنرى فيما يأتي من حديث .

ونحن اذا تدبرنا هذا كله بازاء هذا الاسلوب الاوربي في تدوين تاريخ الادب مقسما الى عصور سياسية .. اتضح لنا صورة الصعوبة في تطبيقه على ادبنا ان لم نقل بتعذر تطبيقه عليه ، وبدت لنا هذه المعالم الفاصلة بين ادب عصر وآخر ، في ضعفها ، اشبه بالحدود والحواجز التي اقامتها دول الاستعمار في الوطن العربي ، واتخذت منها « مناطق نفوذ » لها ، تتحكم في مواردها ومصادرها ومصايرها على نحو ما تشاء . ولكن هذه الحدود والحواجز ، كانت امام مور الامة العربية اضعف من ان تثبت له او تحول دون الاماني القومية ان تتلاقى على هدى من امرها العظيم .

كذلك كان شان هذه التقاسيم السياسية في تحديد طبيعة الادب العربي ، فانها حين فرضت عليه ، عجزت - من هذا المنطلق المقيد - عن الوفاء بتمثيل الصور الصحيحة لابعاده واغواره في مختلف بيئاته وعود تاريخه .

ونحن حين نمضي في ملاحظة الاحداث السياسية والاجتماعية على وجه الزمن كله ، نجدتها تجري ابدا متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم اجزاء الزمن الذي تحدث فيه ، كل حادث منها ينشأ وهو منفعل بأسباب وعلل تتقدمه متصلة بحادث سابق ، فما يكون في يومنا من حادث جديد ، فلاحداث الامس الدابر اثر في حدوثه ، وله بها اتصال وثيق مباشر ، وان بدا للنظرة القاصرة قائما بنفسه ، وما يكون من أحداث في غدا آت انما هو مرتبط بأحداث يومنا كذلك ، وهكذا الشأن كله في أحداث الحياة ، تدور في هذه الحلقة المفرغة دوران الافلاك في مساراتها .

ثم نمضي في ملاحظة تولد الافكار ، فنجد الفكر الانساني - اي فكر كان ومتى واين وكيف - لا ينبع من الاذهان ابتداء ، وانما ينبع من افكار تقدمته وولده ، وان خرج احيانا مبائنا لها في الصورة والشكل ، او بدا منفصلا عنها في النزعة والمعنى والغاية . وهو كما يكون مؤثرا فيما يحدث بعده من

افكار ، يخضع لعوامل شتى سبق زمن وجودها زمن ظهوره ومنها تولد من بعد وتركب في صورة من الصور . وعلى هذا النحو تتلاحق اجزاء السلسلة الزمنية متماسكة ، وتتلاحق كذلك الافكار آخذا بعضها برقاب بعض ، وتتتابع ، ويتولد فكر من فكر ، وتنتقل مؤثرات عصر سابق الى عصر لاحق ، فتظهر اثرها في حياته العامة وفي جملة افكاره وآدابه . على هذا قام قانون الوجود ، واطردت سننه منذ ازله ، وسيطرد على ذلك كذلك الى ابد ، فما ثم من شيء فيه الا يولد من شيء سابق له ، ثم ينمو رويدا حتى يبلغ نضجه في الوقت المقدر له ، فيظهر فيه سويا يحسب الساذج حصاده ابن يومه كما يتوهمه عند ظاهر عيانه ، ولا يكاد يذكر اوائله ومناشئته في زمن سبق ونبت فيه من بذاره .

ثم ، هذه الاحداث السياسية التي تحدث في زمن ما ، انما تحدث آثارها الحقيقية في الحياة عامة ، وفي المعاني الانسانية خاصة ، بله الصور والاشكال ، في اناة وبطء ، فلا يظهر منها ما يظهر الا بعد ريث من الزمن يمضي على لقاحها ، كما يكون من شان المواليذ .

وهي - بعد - أحداث متغايرة ، تعترى الحياة ، فتحدث لذلك آثارا متغايرة ، تتشابك فيها المؤثرات ، فيتعذر تبين عناصر كل حدث منها على انفراده ، وتعرف مدى عمله في خلق تلك الآثار .

واذا كان الامر كله كذلك في جملة شأنه ، ولست احبه يكون غير ذلك ، فلا جرم يكون مؤدى هذه التقاسيم للعصور السياسية - حين نفرضها على الادب العربي - اننا ندخل بها عليه فسادا - واي فساد - ما في ذلك ريب ، اذ نضيف الى عصر لاحق نتاج عصر سابق حمل في نفسه كل عوامله ومؤثراته وخصائصه ، ونحن - الى هذا - لا نملك الوسيلة الى تحليل عناصر كل حدث نتخيل له تأثيرا في الصور والمعاني ، والى تشريحها لادراك عملها في الآثار الادبية ، وتمثيلها في شكل ما من الاشكال ، يصف حكما عاما صحيحا يصدق عليها ولا يفيل ، فنجور بالاول على الاشياء ، ونفتت على الحقائق ، ولا ينتهي بنا الثاني الى فائدة مستخلصة توضح ما نحاول تبينه من السمات الصحيحة من خلال ركام الاحداث .

واذا نحن وسعنا الافق ، ومددنا ابصارنا الى خط ابعد واعمق ، ونحصنا طبيعة تغليب العوامل السياسية في هذه التقاسيم ، واعطانها صفة السلطان المطلق او شبه المطلق الذي يتحكم في مصاير الاشياء ،

وتفهمنا مؤدى ذلك . . انتهينا منه الى تصوير هذا الادب في معظم حالاته ذنبا وراء السياسات لاصقا بأعجازها ، او عبدا لها قنا ، مجرورا ابدا بخطمها ، ومصرفا بهراواتها ، او محبوسا على الخسف بأجرتها، كما تريد له ، لا كما يريد ، دون أن تكون له في نفسه قوة يمتنع بها عن قبول هذه التبعية الذليلة ، او هوى في التمرد على توجيهاتها له وسيطرتها على حريته .

وانى يكون ادب - تستقيم له حياة وترتقي به لغة - حين يكون هذا شأنه من التبعية الذليلة وفقدان الحرية ؟ وهل عرف الادب العربي الاصيل منطلقا له من غير هذه الحرية ؟ وهل تنفس الا من جوائها الطلقة نواسمها الصافية المنعشة للارواح والاكباد ، والباعثة القوة والنشاط في عروقه ؟

نخلص من هذا الى اننا نجد أنفسنا من هذا المذهب بازاء قانون خاص ان صلح لكتابة تاريخ عام به لاداب هذه الوحدات الاوربية الصغيرة ، فان التجارب في تطبيقه في تدوين تاريخ ادبنا ، قد انتهت بنا ولا ريب الى الاخفاق في ابراز سماته الدقيقة ، ورسم صورته الصحيحة ، وتوضيح اصالته وهي تعلق على الخلاف والشبهات .

فلا مندوحة لنا اذن من اطراحه وتركه الا ما فيه من مسحة التفكير والتنظيم ونحوهما ، ومن التماس قانون آخر غيره ، نكتب به هذا التاريخ كتابة تحقق صورته الصحيحة على وجه أفضل واكمل واصدق .

فما هذا القانون الجديد الذي ادعو الى التماسه؟ ما روحه ؟ وما طبيعته ؟ واين نلتمسه ؟

بديهي ان ادب كل امة تحكمه قوانين لفتها ، وروحها المفرغ في هذا الادب ، قبل ان تحكمه المؤثرات الخارجية ، وكل ادب اصيل كالادب العربي - يستمد وجوده واستمراره من روح الامة بعيدا عن التقليد والمحاكاة لاي ادب كان - يتميز عادة ، بشخصية قوية، قوامها الوضوح والصدق ، وبلاغها التأثير والابداع .

واللغة العربية - وهي وعاء العقل العربي ومبدعاته - تتميز بخصائص نشأت فيها من روح الامة العربية وتجاربها خلال الاماد التي اجتازتها من لدن ولدت مع العرب الى أن بلغت بهم كمال نضجها ، واستوت في ازوع صورها البلاغية التي مثلت الاعجاز في القران الكريم ، فعلت بذلك على مجرد « التعبير عن المقاصد » كما يقال في تعريف اللغات ، وانتهت بهذه الخصائص الى تحمل معاني الوجود ومبدعات المقبول .

ولن يختلف عالمان في انها تميزت من هذه الخصائص اولا ببيأتها وموازينها وقوانين اشتقاقها ، وتميزت ثانيا بكمال مخارج حروفها مهموسة او مجهورة ، وبروعة موسيقاها وحلاوة نغمها ودقة جرسها ، وتميزت ثالثا بهذا الفيض الغزير من مادتها وفرط غناها من الالفاظ الموضوعه بازاء مختلف المعاني وادق الفروق . وهي بكل اولئك تسلس - في طواعية تامة - قياد التعبير عن التشكلات التي تعرض للنفس الانسانية في المنشط والمكروه وشتى الاحوال ، وتساوق اغراضها ، وتتلون بألوانها جميعا ، فتلين وتعذب حتى لكانها لا تعرف غير اللين والعدوية في مثل الغزل والحنين والموجد والاشواق، وتشد وتصلب في مواطن العنف القوة ، فتبدو وكأن الفاظها وجملها قد قبست من لهب النار ، او قدت من معادن الحديد . . . وهي في هذا وغيره ، تجري دائما على توافق تام مع روح الموضوع واندماج كامل في صميمه ، وهكذا تتشكل باشكال الاشياء ، وتبرز مع كل حالة موقعة بايقاعها وحرارة روحها توافقا وانسجاما كما تتناسق وتتوافق في الرقص الايقاعي لقطات الرجل مع صفق « الصفاقات » او نقرات اليد على « الطار » بحساب .

ولست ادري اكان ابن حمديس - شاعر حليق - لمع في راقصته خاصة اللغة العربية هذه في توافق ايقاعها ، ام لمع في اللغة العربية خاصة رقص الراقصة في توافق لقطات رجلها ونقرات الطار . . . حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصة لقطت رجلها

حساب يد نقرت طارها ؟

هذه واحدة .

واخرى ان اللغة العربية - الى هذه الخاصية الرائعة بكل اوصافها وسماتها - تمتاز بشيء اكبر من هذا . . .

تمتاز بالشحنات النفسية ، وطاقت الحياة النامية التي تعمل في باطنها دائما فتغذيها وتقويها ، وتمنحها القدرة البالغة في التأثير والابداع .

ذلك بما أفرغته الامة العربية فيها ، في آمادها الطويلة ، من قوة روحها ، ورهافة حسها ، ووقدة شعورها ، وحرارة خيالها ، وعمق تصورها ، وسعة حريتها المكتسبة من طبيعة الصحراء ولانهاية الفضاء ، وما الى ذلك وغيره من اخلاق ومعان وتجارب ، ومن مثل انسانية رفيعة ونبيلة أفرغها كتاب الدعوة الاسلامية المعجز ، وادب النبوة الحي - وهما المثلان

الإعلان لأدب العرب - في جملة الفاظها وتراكيبها ، ومعانيها ، ومدلولاتها ، فكانت منها كالجبلية (Protoplasm) في خلايا الاجسام العضوية من نبات وحيوان .

هذه ثانية . وأستطيع ان اقول في جزم ووثوق انها القانون الحي الذي يحكم هذه اللغة العظيمة ، ويعمل في ضميرها دائما ، ويجدد في شرايينها وعروقها دمها الحار ما اختلف عليها الجديدان ، وما التزم أهلها قوانين الحياة والبقاء وادركوا مدى ارتباط حياتهم بحياة لغتهم . وهو قانون كما قلت قد أبدعه روح الامة ، ومنه اشتق ، ومن معطياته - وهي باب من البحث يستغرق الاعمار ويستنفذها قبل أن تبلغ تمثله أو تلم به - هذا الادب الحي ما تجدد على تقبب الشمس طلوعا ومغيبا ، وهذه العلوم اللسانية وغيرها من علوم اسلامية وأخرى دخيلة صيغت بهذه اللغة ، مما تعاونت الامم التي دانت بالاسلام على مشاركة العرب مشاركة صادقة أصيلة في انتاجه وابداعه على امتداد الوطن الاسلامي الكبير ، وفي مختلف الأزمنة ، وتمثلت فيه عبقرياتها في أروع الصور .

ومن فعل هذا القانون في حياة اللغة العربية وامتدادها الى ما وراء وطنها الأول . . انها قد أصبحت على وجه الزمان مناط احترام الامم التي دانت بالاسلام ، لانها لسان الدين ، فتيبها اعظم تبين لشيء عرف في التاريخ - وهي امم ذوات لغات واديان وعقائد شتى - منذ احسن العرب لقاءهم ايام تحملوا وحي السماء الى الابيض والاحمر والاسود على اديم المعمورة ، من غير تمييز عنصري من هذا التمييز الذي تمارسه السياسة الامريكية في هذا العصر ، عصر اللذة والفضاء ، وبلغفهم رسالته فاحسنوا التبليغ ، وهدوهم بمثلها ، وربما كان هؤلاء يحسون في اعماقهم هذه المثل مبهمة ، فلا يكادون يتصورونها ، أو يطلبون التعبير عنها فلا يجدونه ، فعبرت لهم عنها هذه اللغة العربية تعبيراً وجدوا فيه زاد الارواح ، وري الاكباد ، وغذاء العقول ، واحسوا اعماق الاحساس أنهم اعطوا منها جزيلاً جليلاً ، فشغفوا به حبا ، وتعلقوا باللغة التي اقلت اليهم امانته ، فاطرحوا اديانهم وعقائدهم لدين الله ، وتركوا لغاتهم (أو كادوا) للغة العرب ، ووجدوا لها في مذاقهم حلوة ، وفي اسماعهم جرسا ، لا عهد لهم بمثلها في لغاتهم ، فاقبلوا عليها اقبالا منقطع النظر ، وقد اشتهر فيه كيف انجذب شباب اسبانيا اليها ، فتعلقوا بها تعلق الحب بل الهيام ، حتى رفع الاباء الذين لم ترتفع عن بصائرهم الفشاوات عقائرهم

بالشكوى من هجر ابنائهم لغتهم اليها ، وكيف سارعت أهم في الشرق والغرب لتداولها ، وكيف تمثلها أصحاب المبقرات خاصة فملكوا من ناصيتها ما كان يمتلكه أهلها الاصلاء منها ، وتناغوا بها ، وابدعوا فيها روائع الأناز في الشعر والنثر والفلسفة والحكمة ، وفي كل علم اصلوه وفن مارسوه . وقد عاش ما كتبه بلفة القرءان ، وسيميش الى ما شاء الله ، مصادر حية قوية تثوب الى الانتفاع بها الاجيال بعد الاجيال . ولقد اوحى كثرة هؤلاء العباقرة من الاعاجم في الاسلام الى ابن خلدون قوله المشهورة في « المقدمة » : « أكثر حملة العلم في الاسلام كانوا من الاعاجم » أو كما قال ، ولم يزغ قلمه بها عن جادة الصواب ، وان خاله من غابت عنهم دلالتها جائرا ، ولست اتهم منهم مخاطبا بفهمه حين ادله على ما تشير اليه عبارته بحق من عظمة العرب والعربية ، ومن هذه العظمة انها تمتص العبقرات من كل امة تتصل بها وتتلقوها لتبسط ابداءها للغة العربية دون لغاتها !! وما انفك هؤلاء العظماء الى جانب ابداعهم هذا لها على تراخي الاباء يتناغون بها دون لغاتهم ، وهو امر لا يعرف نظيره في تاريخ العالم ، ومن هذا التناغي عبارات عجيبة صدرت عنهم ، وركبت الينا اعناق الدهور ، تصف عظمة العربية في نفوسهم ، ولا تغفل تقديس العرب . ومن روائع ذلك قول امام العربية في عصره جار الله محمود الزمخشري التركي وهو يفتتح كتابه (الفصل في النحو) : « الله احمد على ان جعلني من علماء العربية ، وجعلني على الغضب للعرب والعصبية ، وابى لى ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز ، وانضوي الى لفيف الشعوبية وانجاز » .

ولست واجدا في كلام كلمة احر واحلى وازكى من كلمة الفيلسوف الرياضي المؤرخ العظيم احمد بن محمد البيروني، من اهل خوارزم ، وهو يتملق بحلاوة العربية ويقول : « والله لان اهجي بالعربية احب الي من ان امدح بالفارسية » !

ذلك فعل هذا القانون الذي يحكم اللغة العربية، والادب العربي ، في حياتهما وانتشارهما . وقد دل عمله الدائب في باطنهما انه قد ادى وظائفه بقوة ويقظة في مختلف الاحوال : اداها كما ينبغي ان يكون اداء شيء حين كان السلطان السياسي الى العرب ، وكانوا القوامين على الحياة العامة في الوطن الاسلامي كله من مشرقه الى مغربه .

واداها كذلك حين تعرضت الاوطان الاسلامية للحركات الداخلية الهدامة ، وللغزو من شرق ومن

غرب ، فمضى باللغة العربية الى غايتها غير قاعد بها عن عمل في أدب أو علم أو فكر .

وأداها على هذا النحو وذلك حين انتهى السلطان الى غير العرب ، لمصور طويلة خلت ، امتدت من سقوط بغداد في يد المغول وزوال الدولة العباسية بذلك في سنة 656 هـ الى عهدنا هذا الذي ما برح الصراع مستندا فيه بين الأمة العربية والخلف الاستعماري اليهودي في عنف بالغ الخطورة على امتداد اديم الوطن العربي ما بين المحيط الاطلنطي والخليج العربي .

اقول : أدى هذا القانون وظائفه خبير ما يكون الاداء في هذه الحقبة الطويلة ، كما اداها في الحقب التي سبقت ، وأحسب أن ادائه هذه الوظائف حين صار السلطان الى غير العرب أو حين تعرض للشر والغزو والعدوان ، لم يصب بمعجز ولم يخامرهُ فتور أو ضعف ، لان القوة الدافعة التي تعمل في باطنه لا تغالب ، ولا تنال منها المؤثرات أو تهزمها ، لانها تقبس اقباسها ودفعها من مصادر نفسية تتقد جلداتها أبدا ولا يخبو لها اوار ، وربما بدت لنا في هذه العصور - اذا لاحظنا الاعاصير التي تناوحت حولها من داخل ومن خارج فثبتت لها راسخة شامخة - اشد وقدا ، وأعلى سنا وسناء مما كانت عليه في دهرها القديم ، وشأنها هذا هو شأن النار حين تنكس ، فيرتفع لها ، ويشد وقده وضرامه ، وما أكبر شبهها في هذا بما شبه به منقذ الامير الشاعر المجاهد قوة عزيمته ، وتأيبه ان يلين للايام التي تحاول ان تنال منه ، حين قال :

كم تفض الايام مني ، وتأبى
همتي أن تنال مني مناها
انا في كفها كجدوة نار
كلما نكست تعالي سناها

وكانه اياها عنى بهذا ، ولم يعن نفسه ، لان القوة التي كان يستشعرها في نفسه ويفالغ بها عوادي البفاة على الوطن العربي ايان حروب المئين بين الشرق والغرب هي قيس من روح الامة ، وروح الامة هذا هو روح ادبها الحي الخالد ، أفرغته فيه افرانا ، وامتزجت به ، فأصبحا متلازمين بالضرورة ، لا ينقسم شيء منهما عن شيء .

والصورة التي أريد ابرازها لهذا القانون ، تتوضح معانيها بتعريفها بالتمثيل لها ، فهي بدونها تبقى صورة غامضة مبهمه . . . غير ان هذا التمثيل يستغرق كتابا ضخما ، وموقفنا يستدعي الاقتضاب

والاستقطاب ، لو امكن ان تستقطب سبع مائة سنة في دقائق .

ومع هذا فانني مضطر ان اقول في هذا شيئا ، وسأقف عند هذه السبع مائة عام التي هي العصر الوسيط كله وقفة قصيرة لا معدى لي عنها .

وننظر الان كيف صورت اقلام المؤرخين ادبه الذي اجرت عليه هذا القانون الاوربي عند كتابة تاريخه ؟

الصورة السياسية العامة لهذا العصر والاحداث العظمى التي حدثت فيه وتناوشته من شرق وغرب ، كانت هي الاطار الذي وضع الادب العربي في داخله .

وهي صورة - كما نعلم جميعا - تتوثب فيها اشباح ذئاب بشرية يقال لها مغول وتتار ، انثالت على الوطن الاسلامي والعربي من اواسط آسيا شرهية نعمة تتحرق من جهل وخرق وغيباء ظمأ الى الدم والتخريب والتدمير ، واشباح ذئاب بشرية اخرى يقال لهم الاوريون ، تنفصد عروقهم عصبية ، وتتزى نفوسهم حقدا وطيشا ، بعضهم يغزون الوطن من اطرافه كما كان من الاسبان في الاندلس فيطاردون اهله ، ويقتلونهم ، ويفرضون على من استبقوا منهم الردة عن دينهم أو الجلاء ، وآخرون منهم يغزون قلبه ويقيمون على ثراه سوق القتال قرنا بعد قرن ، وهم ينثالون عليه موجة اثر موجة من البر ومن البحر ، ليجروا دماء اهليه على ثراه انهارا ، وليبيدوهم ويرثوا ديارهم .

سيطرت اخيلة هذه الصورة الراجعة على اذهان المؤرخين الذين ارخوا الادب العربي ، فدهلوا عن سواها ، ولم يكادوا يبصرون الا سوادها القاتم وظلال اشباحها على الحياة .

وكان اول شيء فعلوه ان سموا هذا العصر الوسيط كله - وفيه اجزاء مهمة اختلفت صورتها عن هذه الصورة - « العصر المظلم » . وهي تسمية احسبهم نقلوها الى تاريخنا عن المؤرخين الاوربيين الذين اطلقوا تعبير (Dark ages) على فترة من تاريخ اوربا بين انهيار الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي وبداية عهد الرينانس (Renaissance) في القرن الخامس عشر . ولكن هذا العصر - في آماده الطويلة التي تخالفت احداثها واحوالها وصورها السياسية - لم يكن كله ظلما كما تخيلوه ، وتحدثوا عن دوله المتتابعة - وهي دول تركيبة في الغالب -

وهو الى ذلك قايع في سرداب بارد رطب مظلم ،
لا يلتمع فيه من بارق الا مثل ما يكون في الفترات من
نار الحياح تحت الحندس البيهم .

ذلك ما يرسمه هذا القانون الاوربي الذي ارتضاه
مؤرخونا المحدثون من صورة لادب هذا العصر وحياء
اللغة العربية فيه كما اتخيلها كلما اقرا ما كتبوه في
ايجازه او تفصيله .

فهل هو كذلك حقا وصدقا ؟

القانون النفسي الحي الذي يحكم اللغة العربية
ويقوم الادب العربي به كما اسلفت ، تنفي اجابته عن
هذا التساؤل صدق هذه الصورة القائمة على ادب
العصر الوسيط وحياء اللغة العربية فيه ، وتكاد
ترسم له صورة اخرى مغايرة لهذه الصورة في كثير
من قسامتها وأوصافها ، ولا اقول : في كل قسامتها
وأوصافها .

وهي تنسق ، ويتبها لها الاستقرار في نصابها
النم كلما تناولت هذه الاجابة التاريخ من مختلف
جوانبه ، وجرت وراءه تتقصى كليات حوادثه
وجزئياتها ، والتمست الرغبات في الطبائع والميول
فتدارستها ، وفاءت الى القوانين النفسية التي تعمل
عملها الدائب في روح الامة وعقلها ولفتها وادبها جميعا ،
فجعلتها المحور والاساس لكل ذلك .

وحسبي الان ، وقد طال بي نفس الكلام ، ان ادل
على هذا في هذا الموقف .

اما تفاصيل ملامح هذه الصورة التي ستتناولها
هذه الاجابة ، وهي تقتضينا متسما من الوقت لا نملكه
في هذه اللحظات ، فادعها الى وقت آخر ، واكل امر
ما قدمت الى العلماء النقاد .

حديثا مجملا متشابها او يكاد يكون متشابها ، ولم
يحاولوا أن يميزوا بين صفاتها ، ويتبينوا مواقف
الملوك والسلاطين من العرب والاسلام واللغة العربية
ومن العلوم الثقيلة والعقلية والدخيلة .

وعرضوا للادب في الوطن العربي ، دون الاوطان
الاسلامية التي لم تتخل عن الاسلام وعن لفته ، بل
خصوا بحديثهم اجزاء منه ، واغفلوا اجزاء اخرى
مهمة كانت مباءات له غنية كل الفنى بثرائها منه ،
وكانت النفوس فيها ربا من العربية .

فماذا نشأ عن هذا ، وما الاحكام التي انتهوا الى
استنتاجها ووسموا بها ادب هذا العصر ؟

نشأ عن هذا اخطاء جمة خطيرة ، من اوضحها
هذه الصفات المتشابهة المتماثلة التي اجرها عليه ،
ما عرفوه منه وما لم يعرفوه ، وهذا الطابع الباهت
الذي طبعوه به وهو يصف ركوده وركود اللغة ركود
الموت ، ويفغل الاشارة الى قوته ومصادر هذه القوة
اغفلا يكاد يكون تاما .

وجملة الصورة التي رسموها له اراها تمثل
صورة انسان خديج ذميم مشوه ، جامد النظرات ،
منظمس القسما ، متفضن الاسرة ، منكمش متقبض
كأحدب (نوتردام) او أحدب (بفسداد) ، عنيت
الأحدب الذي ادى صورته الينا شاعر التصوير
الابتداعي ابو الحسن بن الرومي في بيتيه المشهورين :

قصرت اخادعه وطال قذاله

فكانه متربص أن يصفعا

وكانما صفعت قفاه مرة

وأحس ثانية لها فتجمعا